مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (35) العدد (8)2013
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (35) No. (8) 2013

كتاب سيبويه في دائرة ضوء علم اللغة الحديث

1- (المنهج)

الدكتور يونس علي يونس*

(تاريخ الإيداع 11 / 11 / 2013. قبل للنشر في 31 / 12 / 2013)

□ ملخّص □

يسلط هذا البحث الضوء على أبرز أسس منهج سيبويه في كتابه, وهي في مجملها لا تختلف عن الأسس التي يستند إليها المنهج الوصفي الحديث, وقد اهتدى سيبويه في أوّل موسوعة لغويّة عربيّة, وبشكل ينمُّ على صواب منهجه وريادته في هذا المجال, ويتضح ذلك في المستويات اللّغويّة الثلاثة: الصّوتيّة والصّرفيّة والنّحْويّة.

لقد تتبعنا الطريقة الّتي عالج بها الظواهر اللّغويّة, ومجموعة العمليات العقلية الاستدلاليّة الّتي استند إليها لكل جوانب هذه الظاهرة, إلى جانب الأسس الواقعيّة الّتي اعتمدها في تحقيق ذلك, وهي نفسها الّتي شاعت في الغرب فيمَ بعد, على النحو الآتي: (السماع- اللّغة والكلام- اللّغة المنطوقة واللّغة المكتوبة- وحدة الزمان والمكان- الاستقراء- التصنيف) .

الكلمات المفتاحية: (سيبويه – المنهج الوصفي- السماع- اللغة – الزمان – المكان- الاستقراء – التصنيف)

* أستاذ مساعد – قسم اللّغة العربيّة- كلية الآداب- جامعة تشرين- اللاذقية- سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (35) العدد (8)2013
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (35) No. (8) 2013

Sibaweih's Book in the Light of Modern Linguistics 1.Methodology

Dr. Yunus Ali Yunus*

(Received 11 / 11 / 2013. Accepted 31 / 12 / 2013)

□ ABSTRACT □

This research highlights the most recognizable basics of Sibaweih's methodology in his book. Altogether, they are not different from the modern descriptive approach. Sibaweih appears in the first Arabic Linguistics Encyclopaedia, in a way that presents the righteousness of his pioneering methodology, as is apparent in the three linguistic levels of: Phonology, Morphology and Syntax.

We have traced the method he followed to treat the linguistic phenomena, which in all its forms constitute a constellation of semantic and intellectual operations based on all aspects of this phenomenon, next to the realistic principles that he relied on to achieve his goal. Themselves are the principles that gained circulation in the West later on; as follows: listening; language and speech; spoken and written language; unity of time and place; induction; and categorization.

Keywords: Sibawayh - descriptive approach - hearing - Language - Time - Location - induction - rated

***Associate Professor, Department of Arabic, Faculty of Arts, University of Tishreen, Lattakia, Syria.**

مقدمة:

بدا البحث اللّغويّ عند العرب وصفياً، وسار أساساً على وفق منهج وصفي دقيق في جميع البيانات اللّغويّة وملاحظاتها واستقراء الأصول العامة منها، يقول الدكتور تمام حسان: " غنّ تاريخ اللّغة العربيّة ليفرض علينا في بداية محاولة جديدة لإنشاء منهج وصفيّ في دراسة اللّغة العربيّة، يقوم على جمع المادة ورواتها، ثمّ ملاحظة المادة المجموعة واستقرائها والخروج بعد ذلك بنتائج لها طبيعة الوصف اللّغويّ السّليم"1.

ولم يكن المنهج غائباً في العلوم الإسلاميّة ومنه اللّغة، لآنّ هذه العلوم نشأت في مناخ فكريّ عام هدفه خدمة القرآن الكريم، ولغته التي بلغت أسمى مراتب البيان والقرآن الكريم يحث الإنسان على التدبر والتفكير، قال تعالى:{ كتابٌ أنزلناه مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب}2، وقال:{ إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون}3، ولا يمكن أنْ تنفصل اللّغة عن التفكير لأنّ" للغات جميعاً غرضاً واحداً هو عرض الأفكار"4.

وقد أشار (تشومسكي) إلى جهود علماء اللّغة العربيّة ووصفها"بأنها كانت أقرب إلى الإنسان"5، أي إلى الواقعيّة البعيدة عن متاهات الفلسفة التي تضفي على البحث اللّغويّ صفة الخيال.

هدف البحث:

لما كان القرن العشرين بدأت تغزو ثقافتنا العربيّة نظريات في اللّغة والأدب, زعم أصحابها أنّ أسّها غربي, متجاهلين الدراسات العربيّة التراثيّة في اللّغة والأدب, وأسهم في نقلها بعض الباحثين الّذين تلقوا علومهم في أوروبا وأمريكا وغيرهما, أو اطلعوا على هذه العلوم بما امتلكوه من قدرة على النطق باللّغات الأجنبيّة, وتكمن الخطورة في أنّهم نقلوها بقالبها الغربي, دون التكلف ولو بقليل من الجهد في الرجوع إلى قراءة تراثنا العربي.

وفي أثناء اطلاعي على هذه النظريات كنت أجد ما يشبهها في الذاكرة, وعلى سبيل المثال وجدت أنّ [دي سوسير] لم يخرج كثيراً كما قاله ابن جني في أنّ(اللغة أصوات يُعبِّر بها كلّ قوم عن أغراضهم), وقس على ذلك.

هذا الأمر جعلني أفكر في إعادة قراءة كتاب سيبويه وغيره من كتب اللّغة قراءة متأنية, فوجدت ضالتي وثبت ظني ووصلت إلى نتيجة مفادها أنّ عقماً أصاب التطور اللّغوي ما بعد القرنيين الرابع والخامس الهجريين, ولسنا بصدد الحديث عن هذه القضية, لكن علينا أنْ نعيد النظر في قراءة التراث لعلنا نجد فيه مرتكزاً لولادة نظرية لغوية عربية تتناسب مع التطور الفكري, وأنا واثق أنّنا سنجد الكثير من القضايا مبثوثة في بطون كتب علماء اللّغة تحتاج إلى دراسة وبحث.

ومما تقدّم رأينا أنْ نقدم هذه الدراسة المتواضعة وهي بعنوان(كتاب سيبويه في دائرة ضوء علم اللّغة الحديث), فوجدت أنّ سيبويه اعتمد المنهج الوصفي في أثناء دراسته لكثير من الموضوعات اللّغويّة, وتبيّن ذلك من خلال المقارنة بين النهج الّذي سلكه سيبويه وبعض علماء اللّغة الغربيين الّذين يُعدّون من رواد المنهج الوصفي, وصلت إلى نتيجة مفادها أنّ مقومات وأسس المنهج الوصفي تتطابق مع المنهج الذي انتهجه سيبويه في كتابه.

---

[1] اللغة بين المعيارية والوصفية، د. تمام حسان، ص 22-23.، د. تمام حسان، مطبعة النجاح الجديدة،دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، (1400هـ - 1980م.).

2- سورة، ص،28.

3- سورة، الرعد،3.

4- تاريخ علم اللغة، ص47، جورج مونين، ت: بدرالدين قاسم، مطبعة دمشق، 1972م.

5- النحو العربيّ والدرس الحديث، ص 119، د. عبده الراجحي، دار المعرفة الإسكندرية، 1988م.

منهجية البحث:

رأينا من المفيد والأنجع أنْ نسلك المنهج الذي انتهجه سيبويه في كتابه، وهو المنهج الوصفي، ويبدو الوضوح في طريقة تصنيف الأبواب، وترتيب أجزاء موضوعاتها، إذ اتضح للدكتور كاظم البكاء في تقويمه لمنهج سيبويه:" أنّ ثمّ منهجاً منطقياً جرى عليه صاحب الكتاب في تصنيف الأبواب وترتيبها، فبلغ البحث حاجته، وأدرك هدفه"1 .

وهذا المنهج الوصفي الذي عُرف به كتابه اتسم في عمومه بالوصف، وهو رائد في مجال تطبيق المنهج الوصفيّ في البحث اللّغويّ.

وسيبويه, وهو المسلم الّذي عاش في ظل بيئة فكريّة تشع بالثقافة العربيّة الإسلاميّة, وبالرغبة الصادقة في إرساء أسس العلوم الإسلاميّة التي تستظل بفيء الفكر الديني , وتهتدي بالمنهج العلمي الواضح وجد المنهج سبيله إلى كتابه, فإنّ " معالم منهج واضح كانت تفرض عليه السير

بيقظة وحذر في طريق التأليف "1,وتتجلى معالم المنهجية بشكل بَيّن في شمولية تبادل المستويات اللُّغويّة عنده, ودقة طرح مواضيعها, ومعالجة قضاياها فقد " جمع سيبويه أكثر من علم من علوم العربيّة في كتابه كالنّحو والصرف والأصوات اللّغويّة وغيرها"2.

الظواهر اللّغويّة والاستدلال العقلي:

والمراد بالمنهج الوصفيّ في كتاب سيبويه, الطريقة التي عالج بها الظواهر اللّغويّة, ومجموعة العمليات العقليّة الاستدلاليّة, التي استند إليها لكلّ جوانب هذه الظاهرة, تلك الطريقة أو العمليات العقليّة التي قادته إلى الهدف الذي كان يسعى إليه, إلى جانب الأسس الواقعيّة التي اعتمدها في تحقيق ذلك, وهي نفسها التي شاعت في الغرب فيم بعد على النحو الذي أوضحه فيما يأتي:

السماع :

يُعرّف السماع بأنّه الأخذُ المباشر للمادة اللّغويّة عن الناطقين بها, ويقوم المنهج الوصفيّ في البحث اللّغويّ أساساً على السماع, لأنّ الخطوات التالية للبحث, إنّما تكون بعد جمع المادة الّتي تجري ملاحظتها ودرسّها.

اهتم سيبويه بالمسموع من اللّغة جرياً على طريقة أساتذته, ومنهجهم في وصف اللّغة إيماناً منه بأنّ اللّغة المجموعة عن طريق السماع, هي المعين الرئيس للاتصال بناطقي اللّغة, والسبيل الوحيد لربط البحث اللّغويّ بالواقع, ودليل قاطع على صدق الأحكام اللّغويّة المستقراة.

وتنوعت مصادر السماع عند سيبويه بين الأخذ المباشر من أفواه العرب, أو السماع عن طريق شيوخه, وقد يستعين ببعض من العرب, الذين ينتمون إلى قبيلة معينة تشعبت أماكن سكانها, أو برجلين, أو برجل واحد من العرب, وكل ذلك دليل حرصه على جمع أكبر عدد ممكن من البيانات اللّغويّة من اللهجات المنتشرة على الرقعة الجغرافيّة في الجزيرة العربيّة, ويؤكد في السماع المباشر شرطين أساسيين, هما في الغالب: الفصاحة والثقة؛ ويستعين في ذلك

1- منهج كتاب سيبويه في التقويم النحوي، د. محمد كاظم البكاء، ص450، دار الشؤون العامة بغداد(1980م).

2- تطور الدرس النحوي، د.جسن عون،ص34،معهد البحوث والدراسات العربيّة، مطبعة الجلاوي، (1970م).

3 - أبنية الصرف في كتاب سيبويه, د. خديجة الحديثي,ص63, مكتبة النهضة,ط1, بغداد(1385هـ-1965م) .

بعبارات من نحو: " وسَمِعنا العَرَب الفصحاء "[1], " وسَمِعنا فُصحاءَ العَرَب "2, و" سَمِعنا مَنْ نَثِقُ بـه من العَرَب "3, و" سَمِعنا بَعْضَ العَرَب الموثوق بهم "4, و" وسَمِعنا مَنْ يُوثَقُ بعربيته "5, و" سَمِعنا مِمّن يُوثَقُ بعربيته "6, و" سَمِعنا مِنَ العَرَب مَنْ يقول ممّن يُوثَقُ به "7, و" هذه حِجَجٌ سُمِعَتْ مِنَ العَرَب, وممّن يُوثَقُ به يَزْعُم أنَّه سَمِعها مِنَ العَرَب"8, و" سَمِعت من أثق به من العَرَب "9, و" سَمِعنا من يُوثَقُ به "10.

وممّا يضفي على منهجه صفة الوصفية, أخذه اللّغة عن عربيّ واحد أو عن عربيين اثنين, وهو الذي يُعرف في المنهج الوصفيّ الحديث بـ (الراوي) أو (مساعد البحث) كونه الممثل الحقيقي للّغة, والمعبر الصادق عنها, ومن ذلك قوله : " وأنْشَدناهُ هكذا أعرابيّ مِنْ أفصَح الناس"11, و" سَمِعنا عَرَبيّاً موثوقاً بعربيّته "12, و" سَمِعْتُ عَرَبيّاً مرةً يقول"13, و" سَمِعنا رجلاً من أهل الباديّة "14, و" سَمِعْتُ رَجُلين مِنَ العَرَب عَرَبيين "15, و " سَمِعناهُما مِنَ الشاعرين اللذين قالاهُما "16.

وقد يكتفي بذكر السماع عن العرب مِنْ غير أنْ يقرن ذلك بالفصاحة والثقة كقوله : " سَمِعنا العَرَب "17, و " قَدْ سَمِعنا مِنَ العَرَب "18, و " سَمِعنا مِنَ العَرَب"19, و " كذلك سُمِعَ هذا البيت مِنْ أفواه العَرَب "20.

وقد يصرح باسم العرب, أو القبيلة المسموع عنهم, ومن ذلك : أهل الحجـاز"21", وبنو تميم"22", وقيس"23 ", وأسد"24", وبكر بن وائل"25", وطيء"26", وفزارة "27" ، وبنو سليم"28", وخثعل" 29", وهُذيل"30" .

---

[1] – الكتاب: 219/1 , 478/4 .

2– المصر السابق: 3م503.

3– المصدر السابق:/423/1.

4ـ المصدر السابق: 319/1, 396.

5– المصدر السابق : 464/4, 155/1.

6– الصدر السابق : 71/1, 313.

7– المصدر السابق: 53/1.

8– المصدر السابق: 355/1.

9– المصدر السابق : 230/1.

10– المصدر السابق: 216/4.

11– المصدر السابق: 300/3.

12– المصدر السابق : 98/3.

13– المصدر السابق: 413/2.

14– المصدر السابق: 420/2.

15– المصدر السابق : 27/2.

16– المصدر السابق: 97/2.

17– المصدر السابق : 327/1, 639/3, 644.

18– المصدر السابق : 2/ 412.

19– المصدر السابق: 243/1, 244, 248/3.

20– المصدر السابق: 74/2.

21– المصدر السابق: 3/ 278, 534, 535.

22– المصدر السابق: 277,278/3, 180/4.

23– المصدر السابق: 125/4.

24– المصدر السابق: 125/4, 177, 178.

25– المصدر السابق: 535/3, 536.

26– المصدر السابق:181/4, 192/2.

27– المصدر السابق: 181/4,

28– المصدر السابق: 124/1.

29– المصدر السابق: 226/1.

30– المصدر السابق: 440/4.

وقد لا يُصرح باسم القبيلة ويكتفي بقوله :" وسَمِعناهم يتكلمون"[12], وسَمِعناهم يقولون "2, و "سَمِعناهم ينشدون"3, و" سَمِعنا ذلك منهم"4 .

وإلى جانب سماعه المباشر من أفواه العرب, فإنّه كان يعتمد على شيوخه في جمع المادة وهم : عبد الله بن أبي إسحاق(ت 147هـ)"5", وعيسى بن عُمَر (ت 149)"6", والخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 170هـ)"7", وأبو الخطاب الأخفش الأكبر(ت 177هـ)"8", ويونس بن حبيب البصريّ (ت 182هـ)"9".

ومن باب حرصه على الأخذ من أفواه العرب, تأييده المسموع من شيوخه بكلام العرب على الرغم من كون شيوخه من الثقة بالمنزلة التي لا يمكن معها الطعن فيهم ومن ذلك قوله : " والذي ذكرتُ لك قولُ الخليل, ورأينا العرب توافقه بعدما سمعنا منه"10, وقوله :" ويونس يقول: هذا مِثْلُك مقبلاً, وهذا زيدٌ مِثْلَك إذا قدمه جعله معرفة, وإذا أخره جعله نكرةً, ومِنَ العرب مَنْ يوافِقُه على ذلك"11.

إنّ هذا الاهتمام الذي يولي سيبويه المسموع إياه, يدخل ضمن الأسس العامة التي وضعها لتطبيق منهجه الوصفيّ, وهو يحقق من وراء ذلك أهدافاً مهمة أهمها:

أولاً : إيمانه بأنّ اللغة حقيقةٌ اجتماعيةٌ, وهذا ما يذهب إليه المنهج الوصفي الحديث, الذي يرى أنّ " اللغة مسلكٌ اجتماعي يجري في نماذج معينة من الأداء, وأنّ المجتمع هو الذي يحدد هذه النماذج بطريق العرف"12.

ثانياً : إنّ الأحكام اللّغويّة المستنبطة من الاستعمال الواقعي للّغة؛ إنّما تكون عن طريق أعداد هائلة من الظواهر اللّغويّة, ولا يخرج المنهج الوصفيّ عن توكيده هذه الحقيقة من أنّ الباحث اللّغويّ يبني ملاحظاتِه التفسيريّة وأحكامه اللّغويّة في ضوء معطيات واسعة من الأمثلة اللّغويّة المسموعة .

ثالثاً : الوقوف على الاختلافات اللهجيّة في طبيعة نطق الظواهر اللّغويّة عن طريق السماع المباشر.

اللّغة والكلام:

يُميّز علم اللّغة الوصفيّ في منهجه بين اللّغة والكلام, فإذا كانت اللّغة مظهراً اجتماعياً, فإنّ الكلام عمل فرديّ مقصود , فاللّغة يُكتسب مجودها الفعليّ من خلال الكلام الّذي هو: " نشاط يجري على شروط اللّغة"13.

والاتجاه الّذي اهتدى به سيبويه إلى دراسة اللّغة, هو أنّ اللّغة يبرز وجودها من خلال الاستعمال, أي التداول الفعليّ لها, ويتضح من العبارات التي يستخدمها في كتابه تحديد هذه الخاصة، يقول: " المعارفُ الغالبةُ أكثرُ

---

[1] – الكتاب : 216/4.

2- المصدر السابق: 313/3, 177/4, 207.

3- المصدر السابق: 3/, 116/4.

4- المصدر السابق: 405/4.

5- المصدر السابق: 279/1, 77/2, 44/3, 121/4.

6- المصدر السابق: 169/1, 21/2, 159/4.

7- المصدر السابق: 275/1, 120/2, 94/3.

8- المصدر السابق: 79/1, 83/2, 20/4.

9- المصدر السابق : 271/1, 79/2, 600/3.

10- المصدر السابق: 117/2, 290/3.

11- المصدر السابق: 423/1.

12- اللغة بين المعيارية والوصفية,ص 16, د. تمام حسان, مطبعة النجاح الجديدة, دار الثقافة, الدار البيضاء, الغرب, 1980م .

13- مناهج البحث في اللغة, د. تمام حسان، ص 169, دار الثقافة, الدار البيضاء(1979م).

في الكلام؛ وهم لها أكثرُ استعمالاً"[1] , وقوله: " ومِنْ كلامِهم أنْ يجري الشيءُ على ما لا يُستعملُ في كلامِهم"2, والكلام عنده لا يُطلق إلا على النسق الشكلي, الذي يؤول إلى دلالة تتفق مع النظام الذي له وجوده في عقول أفراد المجتمع اللّغويّ, و هذا النظام يُعرف عند أهل العربيّة بالجملة"3", قال: " واعلم إنْ قُلتَ في كلام العرب إنّما وَقعت على أنْ يُحكى بها ما كان كلاماً "4 , وقوله: " ولو قال:(ثلاثونَ اليوم درهماً) كان قبيحاً في الكلام "5, وقوله: " لو قلت: (كان عبد الله) لم يكن كلاماً, ولو قلت: (ضَرَبَ عبد الله) كان كلاماً"6, وعدم التناسق الشكلي ينتج عنه ما يُعرف في الدرس اللّغويّ الحديث " بالتنافس الدلالي"7.

إنّ منهجه الوصفيّ كان يحتم عليه دراسة اللّغة من خلال الكلام, إيماناً منه بأن الكلام هو البيّن للّغة, وقد قَرَن الكلام بالنظام واهتدى إلى النظام عن طريق تلمس العلاقات الداخليّة التي تربط أعضاء الجملة الواحدة, وتحليل عناصر الجملة الوحدة من جانبها الشكليّ والوظيفيّ .

إنّ هذه السمة التي يُفصح عنها منهجه الوصفيّ تضفي على عمله صفة الابتكار في دراسة اللّغة وصفياً, وتتفق تماماً مع المنهج الوصفيّ الحديث الذي يؤكّد إنّ التركيب اللّغويّ أبعد من أنْ يكون تكديساً لوحدات لّغويّة, فبيئة التركيب صورة متكاملة من الشكل والمعنى.

اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة :

يولي المنهج الوصفيّ الغربيّ اللّغة المنطوقة اهتماماً كبيراً, وهي الهدف من الدراسة في البحث اللّغويّ, ويرجع السبب إلى إنّ التغييرات اللّغويّة تظهر على اللّغة المنطوقة بشكل أدق"8" وتظهر هذه الحقيقة بوضوح في المستويات اللّغويّة : الصوتيّة, والصرفيّة, والنحويّة, فيجب في مجال الصوتيات أنْ تصنف أصوات اللّغة في ضوء موضع نطقها. إذ " لا يمكن القيام بوصف الأصوات إلا على أساس عمل فعل النطق "9.

وقد أدرك سيبويه أهمية اللّغة المنطوقة في منهجه الوصفيّ, وكان يعتمد عليها في استقراء الأصول اللّغويّة, وقد استعان بها في وصف المستويات اللّغويّة, ويظهر ذلك بوضوح في وصفه الأصوات اللّغويّة, حيث ذكر أنّ " أصل الحروف العربيّة تسعة وعشرون حرفاً "10, واستعمل لفظ (حرف) للمعنى العام الذي يُعرف بـ (الفونيم)", ثم بيّن أنّ هناك فروعاً لهذه الحروف الأصول, ومَثّلَ لذلك بالألف, والألف الممالة, وألف التفخيم, وبالضاد والضاد الضعيفة, وبالنون والنون الخفيفة... "11".

ومن مظاهر اعتنائه باللّغة المنطوقة ذُكره أنّ اختلاس الحركة في نحو: (يضربها) و (من مأمنك),"تحكمه لك المشافهه "12, وما الاهتمام بالتماثل الصوتي, والتخالف الصوتي, والإدغام وغيرها من التغييرات الصوتيّة التي يتحكم فيها النطق

---

[1] – الكتاب : 256/2.

2– المصدر السابق: 281/2.

3– ينظر المسائل العسكريات: 41.، الفارسي، دراسة وتحقيق، د. علي جابر المنصوري، مطبعة الجامعة،ط1، بغداد،1982م.

4– الكتاب: 122/1.

5– المصدر السابق: 158/2.

6– المصدر السابق: 90/2.

7– ينظر جوانب من نظرية النحو: ص 103, تشومسكي, ترجمة مرتضى سعيد باقر, وزارة التعليم العالي والبحث العلمي, جامعة البصرة (1986م) .

8– ينظر علم اللغة العام, دي سوسير, ص 43, ترجمة د. يوئيل يوسف عزيز, دار آفاق عربية, بغداد (1985م).

9– المصدر السابق: ص 57.

10– الكتاب: 431/4.

11– ينظر الكتاب : 432/4.

12– الكتاب : 202/4.

إلا أثر من أثار اهتمامه باللّغة المنطـوقة, وتَحْمِلُهُ العناية بالمنطوق على ملاحظة نطق الظاهرة الصوتيّة بدقة من خلال حركـة الشفتين عند الإشمام في قوله : " لأنّ ضَمّكَ شَفَتَيْكَ كَتَحْريككَ بَعْض جَسَدِكَ, وإشمامِك في الرّفـع للرؤية وليس بصـوتٍ للأذن, ألا ترى أنك لو قلت:" (هذا معن) فأشْمَمْتَ كانت عند الأعمى بمنزلتها إذا لم تُشْـمِم "[13]

أما النّبر فلم يولِه سيبويه أي اهتمام, حيث لم نجد له إشارة في كـتابه، ومردُّ ذلك إلى أنّ ليس للنبر وظيفة تمييزية بين الصيغ ومعانيها في اللّغة العربيّة إذ لا يؤثر فيها " الضغط أو صوت ما في الكلمة في الدلالة اللّغويّة, فلا تختلف دلالات الألفاظ أو صيغها أذا توافر فيها النبر, فهي على خلاف الإنكليزيّة, التي تتخذ النّبر وسيلة للتفرقة بين الاسم والفعل "2.

وعلى هذا فلا يوجد في العربيّة نبر صرفيّ؛ وإنّما يوجد نبرجُمليّ ومن خـلال السياق, الّذي يعرف بـ (التنغيم), يقول الدكتور خليل عمايرة: " أمّا إنْ كان النّبر على الكلمات في الجملة, أو على كلمةٍ واحدةٍ في الجملة لإظهارها على بقية كلمات الملة, فإنّ النّبر سياقيّاً دلاليّاً نُسميه التنغيم ولا يكون التنغيم في الجمل إلا لمعنى "3, فهو إذنْ صـفة مميزة للجـمل لبيان الوظيفة الدلاليّة, والتعبير عن معانٍ نحويّة منها: التعجب, والضجر, والفخر, والذعر, ومعان أخرى.

وفي كتاب سيبويه إشارات واضـحة إلى الوظيفة النحـويّة التي يؤدها التنغيم في الانتقال به من باب نحويّ إلى آخر, نذكر منها قوله: " وقَدْ تَقول (تاللهِ !) وفيها معنى التعجب "4.

ويبيّن في موضع آخر من كتابه أنّ التنغيم قادر على التمييز بين دلالة التركيب في ضوء طبيعة الكلام المنطوق, الّذي يُعبّر عنه الكلام, يقول: " وقد تقولُ: (هُوَ عَبدُ اللهِ) و(أنا عبد الله) فاخراً أو موعداً, وتقول: (إنّي عبد الله) مُصغّراً نَفْسه لِربِّه, ثم تفسر حال العبيد فتقـول : (آكلاً كما تأكلُ العبيدُ) "5.

إنّ طبيعة أداء هذه الجمل هي التي تحدد معانيها, ولا يمكن إنْ تظهر المعاني المتعددة للجملة الواحدة إلا في النطق, لأنّ التنغيم لا يظهر في اللّغة المكتوبة.

إنّ إيلاء سيبويه أهمية للّغة المنطوقة توكيد لمنهجه الوصـفيّ, الّذي سار على هدْيه, وبيان للعادات النطقية المتباينة, التي تظهر بوضوح من خـلال ملاحظة الظواهر اللّغويّة الجارية على لسان المتكلمين على اختلاف لهجاتهم, إلى جانب تقريره أنّ اللّغة المنطوقة في سياقها الاجتماعي تختلف عنها في حالة استقرارها كتابةً.

إنّ الوقوف على هذه الحقائق في كتاب سيبويه يحقق أموراً منها :

أولاً: نفي التهمة المنسوبة إلى علمائنا اللّغويين وهي أنهم اقتصروا في " تقعيد اللّغـة وتقنينها على اللّغة المكتوبة بينما الأصل في اللّغة أنْ تكون منطوقة"6.

---

[1]–الكتاب: 171/4.

2– مواضع اللبس في العربية وأمن لبسها, ص 53, د. عبد الفتاح حموز, مجلة مؤته للبحوث والدراسات, جامعة مؤتة, الأردن, المجلد/2/ العدد/1/ 1987م.

3– في نحو اللغة وتراكيبها, الدكتور خليل احمد عمايرة, ص 175, علم المعرفة للنشر والتوزيع, جدة السعودية, (1404هـ _1984م

4– الكتاب: 497/3.

5– المصدر السابق: 80/2.

6– اللغة بين المعيارية والوصفية: ص 34– 35.

ثانياً: إنّ سيبويه اهتدى إلى التصورات الأساسية المتعلقة بـ (الفونيم) قبل ظهورها عند الغربيين, حيث تعمق في تحديد وظيفتها, وفي فحص البيئات الصوتيّة, التي يظهر فيها (الفونيم) الواحد, التي تؤثر في تنوّع الصور النطقية للفونيم الواحد, وليس ذلك كشفاً جديداً كما يذهب إليه بعض الدارسين مِنَ المحدثين"[14] ".

ثالثاً: الرّد على القائلين بأنّ اللّغويين العرب قد أهملوا وظيفة التنغيم في التركيب النّحويّ, نتيجة اعتمادهم على اللّغة المكتوبة, إذْ يرى بعض المحدثين أنّ التنغيم في التراث اللّغويّ " غير منصوص عليه ولا أثر لإشارة مباشرة إليه "2, إنّ القراءة المنصفة , والتعمق الجاد والمتفحص للجانب الإبداعي من تراثنا اللّغويّ من شأنها أنْ تبعد الباحثين المحدثين عن إطلاق أحكام سريعة, تلحق الحيف بجهود لّغوييننا الأوائل, هذه الأحكام التي مصدرها الانبهار ببريق المنهج الوصفيّ الغربيّ مما حجب عن أبصارهم رؤية حقيقة المنهج الوصفيّ عند علمائنا العرب, الذين سبقوا الغربيين إلى الاهتداء إليه بقرون كثيرة.

وحدة الزمان والمكان :

1- وحـدة الـزمـان :

أكد (دي سوسير) في منهجه, أنّ الدراسة الوصفيّة للّغة يجب أنْ تقتصر على زمن بعينه, وهو ما يعرف بالدراسة التزامنيّة, واستبعد الدراسة التعاقبية في مجال الدرس الوصفيّ, وسوغ ذلك ثبوت خصائص اللّغة واستقرار معالمها في زمن محدد، مما يسهل وصفها، وبيان سماتها لوضوح وحدة الخصائص فيها..."3" .

وحين شرع الدارسون المحدثون في تقويم جهود اللّغويين العرب توهم قسم منهم أنّ المراحل الأولى من البحث اللّغويّ مدة متباعدة " جمعت بين أكثر من عصر ومرحلة تأريخية, فهي قد جمعت النصوص اللّغويّة على مدى العصور الجاهليّة , والإسلاميّة, والأمويّة, وهذا بحد ذاته يمثل عدة مراحل تطويريّة على مستويات مختلفة "4.

ومنهم من يذهب إلى رأي يغاير الرأي المتقدم, إذْ يرى أنّ اللّغويين الأوائل " اقتصروا في استقراء المادة على زمن ينتهي بإبراهيم بن هرمة, أو بشار بن برد, في أنّ اللّغة في نظامها المعجميّ والصرفيّ متطورة متجددة لتتمكن من سدّ حاجة مستعمليها في التعبير عما يجول في أنفسهم في إطار نظاميها اللّذين يجب أنْ يكونا ثابتين: التركيبيّ النّحويّ, والصّرفيّ "5.

إنّ هـذا التناقض في الرأي أساسه التأثير بالمنهج الوصفيّ الغربيّ, وتجاهل خصوصيّة اللّغة العربيّة, فاللّغة العربيّة لها خصوصيّتها التي تميّزها من اللّغات الأخرى. إذْ احتفظت لحين تأصيل الأحكام اللّغويّة بكثير من سماتها وخصائصها, فعلى الرغم من الفاصل الزمني بين باحثي اللّغة الأوائل, وبين شعراء العصر الجاهلي, فإنهم كانوا

[1]- ينظر: دراسة الصوت اللغويّ, د. أحمد مختار عمر, ص 139, مطابع سجل العرب, ط1(1976م).

2- في نحو اللغة وتراكيبها:ص 35.

3- ينظر علم اللغة العام, ص 105- 106.

4- النحو الوصفي من خلال القرآن الكريم, محمد صلاح الدين مصطفى بكر, ص 17/1.

5- في نحو اللغة وتراكيبها : ص 32.

يتذوقون لغتهم, فالعربيّة حتى اليوم " لا تزال قائمة على أسسها المتينة, وأعمدتها الصـلبة, لم تُصبها الهزات, التي أصابت اللّغة الأخرى فالنصوص التي بنى عليها الدّارسون أبحاثهم, وملاحظاتهم وخرجوا منها إلى القواعد والقوانين, لا تزال مَعِيناً ثَرّاً لا ينضب "[1], فهي لغة عربيّة مُوَحدة يجمعها تأريخ موحد نضجت على تعاقب السنين, وتناقلتها الألسن عن فهم ودرايّة, زادها القرآن الكريم قوة ووحدة, بخلاف اللّغات الأوربية التي تتباين فيها خصوصيات اللّغة في زمن معين, فعلى سبيل المثال إنّ اللّغة الإنكليزيّة " كثير من ألفاظها التي أَلِفها الناس في زمن شوسر أبي الشعر الإنكليزيّ كما يسمونه قد أصبحت تحتاج في عهد شكسبير إلى مترجم, أومفسر لدلالتها على الرغم من أنّ ما مرّ بينهما من الزمن يُعَدُّ قصيراً في تاريخ الأمم "[2].

وأنّ اللّغة العربيّة في بداياتها لم تتبع التطور التأريخي للظواهر اللّغويّة, وحسبنا في ذلك كتاب سيبويه, الّذي خلت الدراسات اللّغويّة من هذا النمط في البحث, لأنّ منهجه وصفيّ ولا يهمّه النظر إلى الأصول التأريخيّة للكلمة المُقَعّد لها.

إنّ النظرة الصائبة إلى تأريخ اللّغة العربيّة المُوَحّد, والتبصر بخصوصيّة اللّغة العربيّة بمنأى عن تقويمها بمعايير خصوصيّة اللغات الأخرى, تجعل الدارسين المحدثين مُهَيَئين لإدراك المنهج الوصفيّ عند علماء العربيّة, الذين درسوا لّغةً " ثابتةَ الأصول, راسخة القيم, موفورة النصوص السليمة خلال تأريخها الطويل, وهي تمثل لغة مجتمع واحد ذي تقاليد, وأعراف وقيم دينية وتراثية واحدة, وهذه اللّغة قد ارتبطت بشكل جذريّ وصميميّ بالمجتمع العربيّ الإسـلاميّ منذ أقدم عصوره حتى اليوم"[3], وبهذه النظرة الصائبة نصحح النظر على مزايا لغتنا, وتصويب أخطاء بعض الدارسين و" قد يكون من هؤلاء أبناء لها يظلمونها ولا يسيئون النية ولكنهم يسيئون القياس, أو يعتمدون في المقارنة بينها, وبين سائر اللّغات على غير أدواتها "[4].

2- وحدة المكان:

يتخذ المنهج الوصفيّ من وحدة المكان, شرطاً أساسيّاً في دراسة خصائص اللّغة, ولا يعترف بتعدد الأماكن المجموعة منها النصوص اللّغويّة"[5].

ذلك أنّ الالتزام بوحدة المكان يجعل الباحث اللّغويّ على بيّنة من إبراز الخصائص المُوَحّدة للّغة, ويؤخذ على البحث اللّغويّ العربيّ عدم التزامه بوحدة المكان في استقراء الأصول من المادة اللّغويّة المجموعة, وترتب على ذلك عدم التمييز بين خصوصية كل لهجة من اللهجات العربيّة على حدة, حيث لم يفصلوا بين ما كان يَرِدُهم من هذه القبيلة أو تلك, فظهرت نتائج هذا الخلط عند وضع القواعد فجاءت قواعدهم مستوعبة أكبر عدد من الشواهد المتماثلة.

لقد غاب عن ذهن الباحثين المحدثين, أنّ البحث اللّغويّ القديم ارتبط أصلاً بمبدأ فكريّ سامٍ,هو خدمة لغة القرآن الكريم, التي بلغت أسمى مراتب البيان وجمعت العرب على لغة واحدة, فلم يكن هناك حاجز في منهج البحث اللّغويّ عند العرب بين اللّغة العربيّة ولهجاتها, فاللهجة عندهم مصطلح يشير إلى فروع المجتمع اللّغويّ الواحد المُوّزع على مساحة جغرافيّة واسعة, فاللهجات سلسلة متواصلة لتأريخ لغويّ موحد.

---

[1] – البحث اللغوي وصلته بالبنيوية في اللسانيات،ص56.

[2] – دلالة الألفاظ، ص 122.

[3] – البحث اللغوي وصلته بالبنيوية في اللسانيات، ص 59.

[4] –أشتات مجتمعات في اللغة والأدب، ص 12، عباس محمود العقاد، دار المعارف بمصر، 1970م.

[5]– ينظر النحو الوصفي من خلال القرآن الكريم، ص 22.

واتسع المنهج الوصفيّ في كتاب سيبويه ليغطي الاستقرار اللّغويّ فيه معظم اللهجات العربيّة وعلى الرغم من تشدّده في طلب الفصاحة بحثاً عن المستوى الصوابيّ, لم يهمل الأخذ عن اللهجات, التي كانت أقل فصاحة بغية الكشف عن تيار التغيير اللّغويّ , الذي يسري بشكل غير متساوٍ على لهجات اللّغة الواحدة.

إنّ خصيصة الشمولية في تناول الظواهر اللّغويّة من اللهجات المتعددة أتاحت لمنهجه الوصفيّ تغطية وصف المستويات اللّغويّة كافة, والوقوف على التباين اللّهجيّ في استعمال الظاهرة اللّغويّة الواحدة, لأنّ الظاهرة اللّغويّة الواحدة لا يمكن أنْ يكون استعمالها واحداً عند لهجات اللّغة الواحدة.[1]

ومن المعلوم أنّ سيبويه لم يُهْمِل التصريح بأسماء اللهجات العربيّة التي أعتمد عليها في جمع اللّغة, ولم يكتف منهجه الوصفيّ بملاحظة اللّهجات المتفرعة عن اللّغة الواحدة ووصفها, وإنّما كان يتتبع أثر التباين الحاصل في نطق الظواهر اللّغويّة داخل اللّهجة الواحدة نفسها, ويظهر ذلك في عبارات منها : " ناس من بني تميم "[2] , و" ناس كثر من تميم وناس من أسد"2, و" ناس من قيس وأهل الحجاز"3, و" ناس من بكر بن وائل "4, و " يقوله قومٌ من قيس وأسد ممّن تُرضى عربيّته"5, و " إنّ قوماً مِنْ ربيعة يقولون "6.

وفي مواضع كثيرة من كتابه لا يصرح باسم اللّهجة, وإنّما يستعين في الإشارة إليها بعبارات نحو: " بعض العرب "7, و" بعضهم "8, و" مِنَ العرب مَنْ يقول "9, و" بَعْضُ العرب "10.

ونخلص مما تقدم إلى أنّ منهج سيبويه الوصفيّ في بحثه للّغة يتسم بالشمولية, وتَتَبُع آثار الظواهر اللّغويّة في اللّهجات ووصفها, ولا يكون ذلك هدفاً لتوجيه النقد إليه من خلال التقليل من جهود اللّغويين الأوائل, الّذي يمثل كتاب سيبويه خلاصة لها.

إنّ استيعاب منهجه يضع حداً للتناقض الحاصل في الآراء, فحين يَزعُم أحدُ الباحثين المعاصرين أنّ اللّغويين الأوائل لم يكتفوا " بدراسة لهجة واحدة وإنّما عمدوا إلى دراسة لهجات متعددة تختلف من نواحٍ كثيرة, وبذلك انعدمت وحدة الموضوع, الذي اتجهت إليه الدراسة "11, يتوهم باحث آخر أنهم اقتصروا " في استقراء المادة اللّغويّة على قبائل معينة: أسد, وتميم, وقيس وهُذيل, وبعض الطائيين, وبعض كنانة, ورفض القبائل الأخرى بحجة أنها كانت ذات علاقة تجارية "12.

أما الرأي الأول, فيُردّ عليه بأنّ اللّهجات العربيّة تنتمي إلى تأريخ لغويّ واحد, وأنّ البحث اللّغويّ العربيّ قد استقر على أحكام وقواعد, تُمثل الجهد الأعظم من لغات العرب و" الاختلاف في قضايا الأصوات والدلالات لا تمثل بالضرورة مبرراً لوضع أحكام مستقلة لكل لهجة, لأنّ التنظيم والتركيب والبناء كانت واحدة"13, والتسليم بذلك هو الحكم على اللّغة بالتشتت, والرأي الآخر يُردّ بمنهج سيبويه الوصفيّ المُتّسم بالشموليّة في تناول الظواهر اللّغويّة .

---

[1] الكتاب : 177/4.

[2] – المصدر السابق: 120/4, 177, 179.

3– المصدر السابق: 417/4.

4– المصدر السابق: 3/ 533, 197/4.

5– المصر السابق: 125/4.

6– المصدر السابق: 4/ 196.

7– المصدر السابق: 1/ 51, 393– 55/2, 92, 209, 292, 330– 32/3, 217, 219– 32/4, 40, 954, 368.

8– المصدر السابق : 240/1, – 604/3, 614 – 176/4, 368, 385.

9– المصدر السابق: 358/1– 627/3, 647,498.

10– المصدر السابق: 81/3.

11– اللغة بين المعيارية والوصفية: ص 159.

12– في نحو اللغة وتراكيبها, ص31.

13– البحث اللغوي وصلته بالبنيوية في اللسانيات, ص 60.

الاستقراء:

الاستقراء هو استخلاص المبادئ العامة, التي تُنظم الظواهر اللّغويّة, وعن طريق الاستقراء يكتسب الباحث اللّغويّ المعرفة التامة بأسرار اللّغة, تلك المعرفة التي تُعينه على إصدار الأحكام الخاصة باللّغة المدروسة, ويتطلب الاستقراء اللّغويّ في المنهج الوصفيّ"عدداً هائلاً من البيانات التي يتناولها, وقد تكون هذه البيانات أصواتاً عند دراسة الأصوات, أو حروفاً أو مقاطع أو ظواهر موقعيه عند دراسة التشكيل الصوتيّ, أو صيغاً عند دراسة الصرف, أو أبواباً نحويّة عند دراسة النّحو"[1] .

والواقع أنّ الاستقراء كان منهجاً وصفياً عاماً عند اللّغويين الأوائل يستعينون به في تتبعهم كلام العرب, وكوّن عندهم تجربة علمية رائدة, لأنّ وظيفته " لم يفهمها على حقيقتها أحد مثلما فهمها وطبقها سلفنا الصالح من علمائنا الأولين "2.

وكتاب سيبويه يدلّ على اتخاذ علمائنا الأوائل الاستقراء منهجاً في محاولة الكشف عن أصول اللّغة, فأقام بحثه " على تجمع ملاحظات عن الجزئيات, ثم استخلاص قاعدة كلية "3, وهذه السمة تنسجم مع منهج الاستقراء العلمي بشكل عام, لأنّه " يهدف إلى اكتشاف القوانين العامة التي عن طريقها تُفَسّر ظواهر الطبيعة"4.

ويمكن أن نلتمس هذه الحقيقة المنهجية في كتابه المبني على الاستقراء أصلاً, فقد هداه الاستقراء إلى أنّ الكلم العربيّ مبني ومعرب."5" , فكلامه عن المبني والمعرب " يدّل دلالة واضحة على عمل استقرائيّ, إذْ قدّم جميع الحركات في جميع الحالات التي تخضع للكلام, فالمعرب يتغير بتغيّر العامل, والمبنيّ لا يزول فهو ثابت على بنائه"6.

واعتماداً على استقراء كلام العرب, توصل إلى إنّ الفعل يجري في الأسماء على ثلاثة" مجازٍ فِعْلٌ مُظْهَرٌ لايُحْسنُ إضماره, وفِعْلٌ مُضْمَرٌ مُسْتَعْمَلٌ إظهارُه, وفِعْلٌ مُضمَرٌ متروكٌ إظهاره "7, وإلى " أنّ كلّ مضافٍ وكان للنكرة صفة فإنّه إذا كان موصوفاً أو وَصفاً أو خبراً بمنزلة النكرة المفردة"8, وتبين له عن طريق الاستقراء أنّ " الاسم لا تقع فيه علامة الإضمار ... وإنّ الفعل يُضمر فيه وتقع فيه علامة الإضمار"9, وإنّ " الجزم في الأفعال نظير الجرّ في الأسماء, فليس للاسم في الجزم نصيبٌ وليس للفعل في الجرّ نصيبٌ "10.

ومكنته نتائج الاستقراء من وضع ضوابط ثابتة لوظيفة البنية داخل التركيب, قال في (باب ما يضاف إلى الأفعال من الأسماء) ما نصه :" جُملة هذا الباب أنّ الزمان إذا كان ماضياً أضيف إلى الفعل وإلى الابتداء والخبر, لأنّه في معنى (إذْ), فأضيف ما يُضاف إليه(إذْ) وإذا كان لِما يَقعُ لم يُضَف إلا إلى الأفعال لأنّه في معنى (إذْ) وإذْ هذه لا تضاف إلا إلى الأفعال"11.

---

[1] – اللغة بين المعيارية والوصفية, ص 160.

2– الاستقراء في اللغة، دعدنان محمد سلمان، مجلة المجمع العلمي العراقي، محلد/24/ج3–تموز،1983م، ص203

3–اللغة بين العقل والمغايرة، ص55.

4– الاستقراء والمنهج العلمي،ص 75.

5– ينظر الكتاب، 1/13–23.

6– ظاهرة الشذوذ في النحو العربي, فتحي عبد الفتاح الدجني، ص120، دار القلم ن بيروت، ط1، 1974م.

7– الكتاب: 1/296.

8– المصدر السابق: 1/425.

9– المصدر السابق: 2/54.

10– المصدر السابق: 3/9.

11– المصدر السابق: 3/119.

وتوصل باستقراء بنية الكلمة العربيّة في كلام العرب إلى أنّها تتألف من عنصرين: أحدهما (الصوامت) والآخر (الصوائت) ولا تخلو الكلمة من (الصوائت) وهي الحركات الطويلة (الألف, والياء, والواو), ولهُنّ حركات أقصر منها, وهي (الفتحة, والكسرة, والضمة) , و عبارته :" فأمّا الأحرف الثلاثة فإنّهُنّ يَكْثُرن في كل موضع, ولا يخلو مِنهُن حرفٌ أو من بَعْضِهِنَّ ... ثم ليس شيء من الزوائد يَعْدِل كثْرَتهُنَ في الكلام, هُنّ لِكُلِّ مَدّ, ومِنْهُنّ كُلُّ حركة ... وكِثْرتهُنّ في الكلام وتَمكنّهُنَ فيه زوائد أفشى مِنْ أنْ يُحصى ويُدرك " [1] , ويبدو لأحد الباحثين أنّ أولَّ من استقرى حروف الزوائد " هو سيبويه وقد عقد لها أبواباً كثيرة في كاتبه, بدأها بـ [هذا باب علم حروف الزوائد] 2, فبيّن عدتها ومواضع زيادتها في الأسماء والأفعال وقد جاء بعده علماء كثيرون لم يستطيعوا أنْ يستدركوا عليه شيئاً "3, ووجد بالاستقراء " أنّ حروف النفي التي تدخل على الأفعال لها ارتباط بالآلة الزمنية للفعل, ولعلّ سيبويه هو أوّل من أشار إلى ذلك "4, حيث قال: "لن أضربَ نفيٌ لقوله سأضربُ, كما أنّ لا تضربْ نفي لقوله: أضربْ, ولم اضربْ نفيٌ لضربتُ "5,وقال في موضع آخر: " هذا بابُ نفي الفعل إذا قال:(فَعَلَ) فإنّ نفيه (لم يَفْعل) وإذا قال: (قد فَعَل) فإنّ نفيه (لَمّا يَفْعل) وإذا قال: (لقد فَعَل) فإنّ نفيه (ما فَعَل) ، لأنّه كأنّه قال: (قَدْ فَعَلَ) فإنّ نفيه (لمّا يَفْعلْ) وإذا قال: (لَقَدْ فَعَل) فإنّ نفيه (ما فَعَلَ), لأنّه كأنّه قال: (واللهِ لَقدْ فَعَل) فقال: (واللهِ ما فَعَل) وإذا قال : (هو يَفْعَلُ) أي هو في حال فعلٍ, فإنّ نفيه: (ما يَفْعَلُ), وإذا قال: (هو يَفْعَلُ) ولم يكن الفِعْلُ واقعاً فنفيه (لا يَفْعَلُ) وإذا قال: (لَيَفْعَلَنَّ) فنفيه (لا يَفْعَلُ) كأنّه قال: (واللهِ ليَفْعَلَنَّ) فقلت (واللهِ لا يَفْعَل), وإذا قال: (سَوْفَ يَفْعَلُ) فإنّ نفيه (لنْ يَفْعَلَ) "6.

ولم يكتفِ سيبويه باستقراء أوضاع المفردات العربيّة في التراكيب, وما يطرأ عليها من تغيير يتصل بإعرابها أو بنائها, بل قام أيضاً باستقراء الجملة العربيّة وكيف يتألف الكلام وعَلامَ يعتمد؟ "7", ودَلَهُ الاستقراء على أنّ الكلام لا بدّ أنْ يُبنى من ركنين هما : المسند والمسند إليه, وأنّ المسند إليه لا يكون من الأسماء, أما المسند فقد يكون اسماً وقد يكون غير اسم, قال: "هـذا بابُ المسند و والمسند إليه, وهُما لا يَغنى واحدٌ مِنهما عن الآخر, ولا يجد المتكلم منه بُداً, فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبنيٌ عليه, وهو قولك: (عبد الله أخوكَ) و(هذا أخوك), ومثل ذلك : (يَذْهَبُ عبدُ الله), فلا بُدّ للفعل منَ الاسم كما لم يكنْ للاسم الأوّل بدّ منَ الآخر في الابتداء "8.

وليس غريباً على سيبويه أنْ يهتم بربط منهجه الوصفيّ بالواقع اللّغويّ, وتعزيز الأصول المستقراة بالشواهد المستعملة فعلاً في كلام العرب, ليطمئن إلى سلامة نتائج الاستقراء, ولهـذا كان يلجأ إلى عبارات من نحو: " وهذه حِجَجٌ سُمِعَت مِن العرب وممن يُوثق به, يزعم أنّـه سَمِعَها مِن العرب "9, و" مما قالت العرب تصديقاً لهذا "10,

---

[1] – الكتاب: 318/4.

2– المصدر السابق: 235/4.

3– الاستقراء في اللغة: ص 203.

4– الاستقراء في النحو: ص 173.

5– الكتاب: 135/1, 136.

6– المصدر السابق: 117/3.

7– ينظر: الاستقراء في النحو: ص 178.

8– الكتاب: 23/1..

9– المصدر السابق: 255/1.

10– المصدر السابق: 450/4.

وكثيراً ما كان يستعمل عبارات تفصح عن اطراد الظواهر اللّغويّة, التي استخلصت منها قواعد تندرج تحتها الظواهر التي تدخل في إطارها العام فألزم نفسه في الاستقراء بمنهج صائب لصيق بالواقع متصف بالعلميّة, لأنّ " الاستقراء يقوم على الاطّراد "[1].

وفي الكتاب مواضع كثيرة يذكر فيها اطّراد الظواهر اللّغويّة في الواقع, ومن ذلك: " التّنوين والنون عربيّ مُطّرد"2, و" جاز هذا في الأزمنة واطّرد فيها, كما جاز للفعل أنْ يكون صفة"3, و " الاعتلال هو الكثير المطّرد "4.

وأتاح له الاستقراء أنْ يصف ما لم يقع في كلامهم بعبارة: ليس في كلام العرب, وقد " ضمنها أحكاماً ضبط فيها كلام العرب ضبطاً دقيقاً, مكّنه من وضع أحكامٍ حصر فيها ما يصح أنْ يقـع في كلامهم مما لا يصح, وبنى ذلك كلّه على الاستقراء"5, ومن ذلك قوله: " ليس في كلام العرب اسمٌ آخره واو قبلها حرف مفتوح "6, وقوله: " ليس في الكلام حرفٌ آخره ياء ما قبله مفتوح "7, و" ليس في الكلام ا فْعُل "8, و" ليس في الكلام فِعُل "9, و " ليس في الكلام حرف تتوالى فيه أربع حركاتٍ "10.

وما توصل إليه سيبويه من أحكامٍ وأصول مبني كله على الاستقراء, وقد عَرضتُ جانباً منه لأبيّن أنّه قد أفاد من المنهج الاستقرائيّ الوصفيّ لضبط أنماط الكلام العربيّ .

التصـنـيـف :

تدخل العمليّة التصنيفيّة ضمن المنهج الوصفيّ في البحث اللّغويّ, وبما أنّ اللّغة تتألف من مستويات يجد اللّغويّ صعوبة في وصفها ضمن مستوى واحد, ومن هنا فإنّ التصنيف اللّغويّ بحاجة إلى استقصاء ظواهر اللّغة بوسائل متنوعة, وذلك عن طرق تقسيمها على مستويات لغويّة تسهل على اللّغويّ وصفها وتحليلها إذْ يجب التركيز على أنّه لا توجد لغة موزعة لذاتها على مستويات, وأنّ تقسيم اللّغة على مستويات, ووضعها من ضمن وظيفة اللّغويّ, وتأسيساً على ذلك يُعدّ التصنيف عملاً منهجياً إلى جانب كونه عملاً وصفيّاً مهماً فتوضّح الوحدات اللّغويّة في مجاميـع, أو أصناف على أساس المعيار المناسب للتشـابه, والأساس الذي يستند غليه الباحث اللّغويّ في تصنيف الوحدات اللّغويّة شيئان: الشكل والوظيفة.

ويؤكّد المنهج الوصفيّ أنّ معايير الفعل التصنيفيّ للّغة ما لا يمكن أنْ تطبق على لغة أخرى, فكل لغة يجب أنْ تصنّف في ضوء المعايير الخاصة بها.

ومن المعلوم أنّ التصنيف يلي مرحلة جمع البيانات اللّغويّة, وبعد ما تتراكم المعارف في ذهن الباحث, بفعل الملاحظة الدقيقة للظواهر اللّغويّة.

---

[1] **الاستقراء والمنهج العلمي, ص77.**

2- الكتاب : 197/1 .

3- المصدر السابق: 177/2 .

4- المصدر السابق: 346/4 .

5- الاستقراء في اللغة: ص213.

6- الكتاب : 260/3.

7- المصدر السابق: 263/3.

8- المصدر السابق: 245/3.

9- المصدر السابق: 244/3.

10- المصدر السابق: 289.

والتصنيف وسيلة منهجية للتعامل مع الظواهر بغية معالجتها في فئاتٍ, ولم يكن كتاب سيبويه بعيداً عن هذا الأساس المنهجيّ في وصف اللّغة, فقد اتخذ من المنهج الوصفيّ طريقا لتصنيف الظواهر اللّغويّة في ضوء الأحكام, التي توصل إليها عن طريق ملاحظة العلائق, التي تربط الظواهر بعضها ببعض, وتحديد العلائق على أساس من التماثل الشكليّ والوظيفيّ .

فقد هداه عمله التصنيّفيّ إلى معرفة أقسام الكلم قال: " فالكلمُ اسمٌ وفعلٌ وحرفٌ لمعنى ليس باسم ولا فعل "[1] , وصنف أقسام الكلام من حيث الجنس"2",و العدد"3" , والزمن "4", وبيّن في منهجه التصنيّفيّ لواحق الأسماء"5", ولواحق الأفعال "6", وميّز بينها بشكل دقيق, وقاده عمله التصنيّفيّ إلى العلاقة بين شكل البنية وما يكون له من دلالة ومن ذلك قوله: " ومِنَ المصادر التي جاءت على مثالٍ واحدٍ حين تقاربت المعاني في قولك:(النّزوان) و (النّقزان) وإنّما هذه الأشياء في زَعْزَعَة البدن واهتزازه في ارتفاع, ومثله (العسلان) و (الرّتكان)..."7

وصنف أصوات اللّغة ومخارجها, وبيّن صفاتها, ثم وضّح أنّ تصنيفه للأصوات إنّما يكـون لمعرفة الوظائف التي تقوم بها في التشكيل الصوتي وعبارته " وإنّما وَصَفْتُ لك حروف المعجم بهذه الصفات لِتَعْرف ما يُحْسُن فيه الإدغام وما يجوز فيه, وما لا يحسن فيه ذلك ولا يجوز فيه وما تُبْدله استثقالاً كما تُدغم, وما تُحفيه وهو بزِنَة المُتَحرّك "8 .

واعتمد سيبويه في عمله التصنيّفيّ بشكل عام على وسيلتين أساسيتين هما: الاستبدال والتحويل فقد صنف " أضارباً من الكلم تصنيفاً واحداً أي ينسبها إلى باب واحد أو معنى نحويّ واحد على وفق خطة الاستبدال بقطع النظر عن امتداد بنيتها الصرفيّة"9, ومن ذلك تصنيفه (أنْ يَفْعَل) و (المصدر) تصنيفاً واحداً لإمكانيّة استبدال أحدهما بالآخر داخل التركيب , وعبارته: " لأنّ (أنْ والفعل) بمنزلة مصدر فعله الّذي ينصبه"10, وهو يرى أنّ (الفعل المضارع) و (اسم الفاعل) يصنفان تصنيفاً واحداً في التركيب, قال: " تقول: (إنّ عبدَ اللهِ لَيَفْعَل), فيوافق قولك: (الفاعل) حتى كأنك قُلْت: (إنّ زيداً لفاعلٌ) فيما تريد من المعنى, وتلحقه هذه اللام كما لحقت الاسم ولا تلحق (فَعَل) اللام"11, فقد ميّز (يَفْعُل) من (فَعَل) لعدم إمكانية استبدال أحدهما بالآخر ولاحظ التماثل القائم بين (يَفْعَل) و(فاعل) من جهة أنّه يمكن أنْ يقع أحدهما موقع الآخر واشتراكهما في خاصية قبول (اللام) .

وتبيّن لسيبويه ضمن منهجه التحويليّ في تصنيف الأبنية الصرفيّة تصنيفاً واحداً, أنّ (الواو) المسبوقة بالكسرة تُحوّل (ياء) نحو: مِوْزان، ومِوْعاد، فيقال: مِيْزان ومِيْعاد فالبنية التحتية هي (الواو) والبنية السطحية هي الياء"12", وكذلك (الواو) إذا تحركت و(الياء) التي قبلها ساكنة تقلب (ياء) نحو : قيّام, وديّار, فالبنية التحتية لهما : قيْوام, وديْوار"13".

---

[1] **الكتاب: 12/1.**

1- المصدر السابق: 1/ 17, 20.

2- المصدر السابق: 1/ 17, 18, 19, - 220/4, 230.

4- المصدر السابق: 12/1, 136- 7/3.

5- المصدر السابق: 3/ 335, 492- 598,627/4.

6- المصدر السابق: 279/4, 282, 283, 284.

7- المصدر السابق: 14/4.

8- المصدر السابق: 436/4.

9- ينظر نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر الحديث, د. نهاد الموسى, ص 31, المؤسسة العربية للدراسات والنشر, بيروت (1988م) .

10- الكتاب : 124/3.

11- المصدر السابق: 14/1.

12- ينظر الكتاب: 335/4.

13- ينظر الكتاب: 367/4.

وبذلك استطاع أنْ يحصر الكلمات التي تنتمي إلى صنف واحد اعتماداً على الارتباط الشكلي, والدلاليّ فيها, فالعمليّة التصنيفيّة الّتي اتبعها سيبويه ليس في حقيقة أمرها, إلا مجموعة من القواعد الاستبداليّة والقواعد التحويليّة التي تضفي على منهجه سمة الوصفيّة.

الـمـوضـوعــيـة :

يلتزم علم اللّغة الوصفيّ في سياق منهجه العلميّ الموضوعيّة في تناول الظواهر اللّغويّة, فالباحث اللّغويّ " ينظر إلى الصورة اللّفظيّة المختلفة التي تعرضها لغة من اللّغات, ثم يصنفها على أسس معينة, ثم يصف العلاقات الناشئة بين الكلمات في الجملة وصفاً موضوعياً "[1], وهذه السمة التي يقرها منهج علم اللّغة الوصفيّ, الهدف منها تحقيق أمرين: أولهما: اتصال اللّغة بالواقع, لأنّ البحث يدرس اللّغة لغرض الدراسة نفسها، والاتصال المباشر بالواقع اللّغويّ أصل من أصول المنهج الوصفيّ"2", ثانيهما: الابتعاد عن إطلاق أحكام مسبقة, لا تمت إلى واقع اللّغة بصلة, لأنّ وظيفة اللّغويّ هي وصف الحقائق لا فرض القواعد

وإذا كانت الموضوعيّة ميّزة جديدة للباحث اللّغويّ الغربيّ, شَرَّطها عليه المنهج الوصفيّ الحديث, فإنها أصل من أصول البحث الوصفيّ العربيّ, الذي دعا اللّغويّون الأوائل إلى التزامه.

واتخذ سيبويه من الموضوعيّة أساساً يستند إليه في منهجه الوصفيّ, الّذي حصل على إنْ يكون بينه وبين الواقع جذور مشتركة فقد كان يعالج موضوعه على أنّه طريقة العرب في كلامهم, و يصرّح بذلك في مواطن كثيرة من كتابه, ويعبر عنه بعبارات من نحو: " ولمْ يُؤخذ ذلك إلا مِنَ العرب "3, وقوله: " وكلُّ هذا على ما سمعنا العرب تتكلم به"4, وقوله: " وكذلك وجدنا العرب تقول"5, ومثله: " كذلك يتكلمون به "6, وقوله : " فهذه حال كلام العرب في الصحيح والمعتل "7.

وكان يحرص كثيراً على أنْ تكون الأحكام اللّغويّة جارية على كلام العرب, لأنّ أيّ وصف ينطلق من أحكام مسبقة أو يخضع لآراء ذاتية ينأى بالبحث عن الموضوعيّة, وهذا ما يؤكّده المنهج الوصفيّ الحديث, الّذي يرى أنّ وظيفة اللّغويّ هي وصف طريقة كلام الناس بلغتهم, وليست التحكم في كيفية الكلام, لأنّ علم اللّغة الوصفيّ وصفٌ وليس حكماً .

وهذه الحقيقة تثبت ريادة سيبويه في التزام الموضوعيّة, حيث سبق علم اللّغة الوصفيّ الحديث بقرون طويلة, وتتجلى الموضوعيّة في عبارته الصريحة في قوله: " فأجْرَيْتُها على ما أجْرَتْها العربُ "8, وقوله : " فأجْرَيتُه على كلام العرب"9.

إنّه يصف الحقائق اللّغويّة كما هي في الواقع, ويدعو متكلم اللّغة إلى أنْ يلتزم الأحكام المستقاة منها, لأنّها ضوابط تجري على سُنن كلام العرب ولا يجوز التجاوز عليها, قال: فليس لك في هذه الأشياء, إلا أنْ تجريها على ما أجْرَوها ولا يجوز أنْ تريد بالحرف غَيْرَ ما أرادوا"10, ومثله: " فإنّما يُنْتَهى فيها حيثُ انتهت العرب"11,

---

[1] – مشكلة البنية, د. زكريا إبراهيم, ص 77, دار مصر للطباعة, القاهرة,(د. ت).

2– ينظر النحو العربي والدرس الحديث, د. عبده الراجحي, ص 55, دار المعرفة الجامعية, مطبعة الانتصار, الإسكندرية, (1988م).

3– الكتاب : 237/1.

4– المصدر السابق : 327/1.

5– المصدر السابق: 395/1.

6– المصدر السابق: 367/3.

7– المصدر السابق: 431/4.

8– المصدر السابق: 334/1.

9– المصدر السابق: 430.

10– المصدر السابق: 218/1, 266.

11– المصدر السابق: 252/1.

وقوله:" فإنّها تُجريها كما أَجْرَتِ العربُ, وتَضَعُها في المواضِع التي وُضِعْنَ فيها ولا تُدْخِلَنَّ ما لم يُدْخِلوا من الحروف "[1], وقوله:" فقفْ على هذه الأشياء حَيثُ وَقَفوا"2, وقوله :" فأجرِ الأشياءَ كما أجرَوْها "3, وقوله: " فهذا أمر النكرة, وهذا أمر المعرفة, فأجْرِهِ كما أجْرَوْهُ, وضع كلّ شيء مَوْضِعَهُ "4.

أمّا وصفه لظواهر لغويّة معينة بالجودة والحُسن, أو القُبح والخطأ، أو ما شاكل ذلك من الأوصاف, فهي ليست من قبيل أحكام فَرَضيّة, وإنّما تنهض أساساً من دوافع لغويّة بَحْتَة أُجْملها بما يأتي :

أولاً : شموليّة منهجه الوصفيّ, التي وسعت لتغطي استعمالات الكلام في بيئات لهجيّة متنوعة, وهي سمة تتفق مع المنهج الوصفيّ الحديث الّذي يدعو إلى أنّ الوصف يجب أنْ يغطي الظواهر اللّغويّة المستعملة, والمنبوذة في البنية الاجتماعيّة.

ثانياً: البحث عن المستوى الصوابيّ لأنّ: "القصد إلى فهم النص القرآنيّ هو الّذي أدى إلى تحديد مستوى لغويّ, معين"5.

ثالثاً : إنّ هذه الأوصاف مستقاة أصلاً من الواقع اللّغويّ, مصدرها محاكمة العرب أنفسهم لاستعمالات لغويّة جارية على ألسنتهم, وهي نظرة اجتماعيّة للّغة.

وفي الكتاب أدلة واضحة, تثبت صواب منهجه الوصفيّ في الاحتراس من إطلاق أحكام فَرضيّة بعيدة عن الاستعمال الواقعيّ للّغة, ومن ذلك قوله: " وأمّا يونس وناس من النّحويّين فيقولون:(اضربان زيداً) و(اضربْنانْ زيداً) فهذا لم تقله العرب وليس له نظير في كلامها "6, ومثله : " ولو قلت: (وهو مني مَجْلِسَك) أو(مُتكأ زيد, أو مَرْبِطَ الفَرَسَ) لم يُجِزْ, فاستعمل مِن هذا ما اسْتَعْمَلَتِ العربُ, وأجِزْ ما أجازُوا "7, وقوله: " واعلم أنّه ليس كلُّ مَوضِع يجوز فيه التعظيم, ولا كلُّ صفةٍ يَحْسُن أنْ يُعظَّم بها, لو قلت: مررت بعبد الله أخيك صاحب الثياب أو البزّاز, لم يكُنْ هذا ممّا يُعظَّم به الرجل عند الناس ولا يُفخّم به... فاسْتَحْسِنْ مِنْ هذا ما اسْتَحْسَنَ العربُ, وأجِزْهُ كما أجازَتْهُ " 8, فالجواز والاستحسان راجعان إلى طبيعة كلام العرب, ولا دخل لسيبويه في ذلك, وكذلك القبح والخطأ, قال في إعراب (هو) في قوله تعالى:{ وَيَرَى الذين أوتوا العلم الذي أُنْزِلَ إليك مِنَ رَبِّكَ هُوَ الحَقُّ }9, ما نصّه: " وقد زعم ناس أنّ (هو) ها هنا صفة, فكيفَ يكون صفةً وليس من الدُّنيا عربيٌّ يجْعَلها هاهنا صفة للمُظْهِر ولو كان ذلك كذلك لجاز(مَرَتُ بِعَبدِ اللهِ هُوَ نَفْسِه) فـ (هُوَ) ها هنا مستكرهةٌ لا يتكلمُ بها العربُ لأنّه ليس من مواضعها عندهم "10, وقوله: (وتقول: (لا تَدْنُ مِنْه يكن خيراً لك), فإنْ قُلْتَ: (لا تَدْنُ مِنَ الأسدِ يأكلك) فهو قبيح إنْ جزمت, وليس وَجْهَ كلام الناس لأنّك تُريد أنْ تَجْعل تباعُدَهُ مِن الأسد سبباً لأكْلِه "11, وقوله: " وإنّه امتنَعوا أنْ يُثَنّوا (عشرينَ) حين لم يُجِيزوا (عِشْرونان) واستغنوا عنها بـ (أربعين), ولو قلت ذا لقُلت: (مائتان) و (ألفانان) و(اثنانان) وهذا لا يكون, وهو خطأ لا تقو له العرب "12.

---

[1] – الكتاب: 330/1.

2– المصدر السابق: 266/1.

3– المصدر السابق: 419/1, وينظر: 390/2.

4– المصدر السابق: 114/2, وينظر: 348/2.

5– النحو العربي والدرس الحديث, ص 51.

6– الكتاب: 527/3.

7– المصدر السابق: 414/1.

8– المصدر السابق: 69/2.

9– سبأ : 6 .

10– الكتاب: 390/2.

11– المصدر السابق: 97/3.

12– المصدر السابق: 393/3.

إنّ هذه الشواهد تؤكّد إنّ الأحكام, التي أصدرها سيبويه تنمُّ على ذوقه اللّغويّ السليم, الّذي لم ينفصل عن الذوق العربيّ, لأنّها أحكام جارية على كلام العرب, وهي في مجملها التزام الموضوعيّة في منتهى الدقة, وعدم الخروج عن المنهج الوصفيّ وتطبيق أركانه, فالوصف الموضوعيّ هو السمة الغالبة على منهجه, وهدفه عرض الحقائق اللغويّة ووصفها بعيداًعن الغرض, ويتردد استعمال مصطلح (الوصف) كثيراً في كتابه, ومن ذلك قوله: " إلا أنّه ما على وصفت لك "[1], وقوله: " وَجَميعُ ما وَصفْناهُ مِنْ هَذهِ اللّغات سَمِعْناهُ مِنَ الخليل رَحمهُ الله ويونس عن العرب "2, وقوله: " فممّا تحرّك مِنَ السَواكِن كما وَصفْتُ لك"3, وقوله " وممّا تُتْبِعُه هذه الزيادة مِنَ المُتَحرّكات كما وصَفْتُ لك "4, ويصف ذكر (لك) بعد (سقياً) بقوله: " فهذا بِمَنْزِلةِ قولك (لك) بعد قولك: (مرحباً) يجريان مُجرى واحداً فيما وصفت لك "5, وفي (باب عدةُ ما يكون عليه الكَلِم), يقول: " فَمِنَ الأسماء التي وَصَفْتُ لك: (يَدٌ) و (دمٌ) و (حِرٌ) و (سَتٌ) و (سَهْ) "6.

وقد تنبه سيبويه على أنّ الوقوف عند الوصف في عرض الحقائق اللّغويّة, لا يمكن أنْ يكون موقفاً لغويّاً صائباً, لذلك فقد تجاوز الوصف في نظرته إلى اللُّغة لينتقل إلى تفسيرها وتحليلها, وبيان كيفية تفاعل اللّغة مع محيطها الاجتماعي الأوسع في ربطها بموقف الكلام (السياق) ليتهيأ لمتكلم اللّغة معرفة ما يقوله فعلاً وفهم ما يقوله, وهو بهذا يتفق مع المنهج العلميّ الصائب, الذي أثبت أنّ تطور العلوم " لا يقوم على وصف ما يحدث بل على وصفه وتفسيره "7.

وعلى الباحث " أنْ يصف ويصوغ المفاهيم ويحلل المعلومات "8, ولا تظن أنّ سيبويه قد خرج في منهجه التفسيريّ عن الموضوعيّة في ربط تفسيراته بواقع اللّغة, فهو حريص على أنْ يفسر اللّغة باللّغة نفسها قصد التوضيح, كما يصرح بذلك في قوله: " فَقِفْ على هذه الأشياء حَيثُ وقفوا ثم فَسِّر "9, ومثله: " وإنّما حَمَلنا على تَفْسير (لَبيْك) و (سَعَديْكَ) لنوضح به وَجه نَصْبِهما "10.

إنّ معظم تفسيراته قائمة على المشابهة والتفريق بين استعمالات الكلام، فمن المشابهة قوله : " وممّا يكون بِمَنزلة الابتداء قولك: (كانَ عبدُ اللهِ مُنْطلقاً) و (ليت زيداً مُنْطَلِقٌ) لأنّ هذا يحتاج إلى ما بعده كاحتياج المبتدأ إلى ما بعده "11, وقوله: " واعلم أنّ: (بَلْ), و (لكن) يُشْرِكْنَ بين النعتين فيُجريان على المنعوت كما أشركت بينهما (الواو) و (الفاء) و(ثمّ) و (أو) و (لا) و (إما) وما أشبه ذلك "12, ومنه " اعلم أنّ كلّ شيء حَسُنَ لك أنْ تُعْمِل فيه (ربّ) حَسُنَ لك أنْ تُعْمِلَ فيه (لا) "13.

---

[1] – الكتاب: 47/1.

2– المصدر السابق: 214/2.

3– المصدر السابق: 219/2.

4– المصدر السابق:421/2.

5– المصدر السابق: 313/1.

6– المصدر السابق: 219/4.

7– الاستقراء والمنهج العلمي: ص 149.

8– جدلية علم الاجتماع بين الرمز والإشارة, ص 270, تأليف (اينودوزي) ترجمة د. قيس النوري, دار الشؤون الثقافية العامة, بغداد/1988/.

9– الكتاب: 266/1.

10– المصدر السابق: 1 /353.

11– المصدر السابق: 1/ 23.

12– المصدر السابق :435/1.

13– المصدر السابق:286/2.

ومن التفريق بين الظواهر اللّغويّة قوله: " ألا ترى أنّك لو قُلت: (ما زيد منطلقاً أبو زيد) لم يكن كقولك: (ما زيدٌ منطلقاً أبوه) لأنّك قد استغنيت عن الإظهار"[1] , ومثله: " وتقولُ : (أعبد الله أنت رسولُ له ورَسُولُه) لأنّك لا تريد بـ (فَعُول) ههنا ما تريد به في (ضَرُوبٍ) لأنّك لا تريد أنْ تُوقع منه فعلاً عليه, فإنّما هو بمَنْزلة قولك: (أعبد الله أنت عجوزٌ له ؟) "2.

ويشيع استعمال مصطلح (التفسير) في الكتاب, أذكر منه على سبيل المثال قوله: " لأنّ مَرَرْت تفسيره لَقَيتُه ونحوها"3, وقوله: " وتَفْسيرُه ههنا هو التّفسير الذي فُسّر... "4, وقوله: " سأفَسِّر لك إنّ شاء الله "5.

ومن البديهي أنّ تفسير اللّغة بحاجة إلى باحث متضلع بأسرار لغته, لإنّ اللّغة ظاهرة معقدة جداً, يحتاج وصفها وتفسيرها إلى ذاكرة مبدعة ومهارة فائقة, وهذا ما لمسناه من كتاب سيبويه, الذي يُعبّر بحقٍ عن باحث لغويّ يمتلك ناصية اللّغة .

وعلى الرغم من أنّ الباحث يبيّن ملاحظاته التفسيرية في ضوء معطيات واسعة من الأمثلة اللّغويّة المسموعة من أجل توضيح نتائج أعماله, فإنّ لحدسه اللّغويّ حضوراً في التفسير " هذا الحدس الذي يقوده إلى اقتراح أمثلة لغويّة جديدة, وإنّ استعانة الباحث في مجال نشاطه التفسيريّ بأمثلة لغويّة يقترحها, تعبير عن القابلية اللّغويّة لدى متكلم اللّغة على توليد جمل جديدة على غرار أصول التراكيب المستقرة في ذهنه, وهذا ما يُعرف بـ (القواعد التركيبيّة) في اللّغة التي تذهب إلى أنّ جمل اللّغة الإنسانيّة غير متناهيّة, وأنّ معرفة أيّة لغة تتضمن القابلية الضمنيّة على استيعاب عدد غير محدود من الجمل, وأنّ اللّغة لا تتألف من الجمل, التي يتكلمها الناس فحسب, وإنّما يجب أنْ يأخذ بنظر الاعتبار أنّ الناس يمكن أنْ ينتجوا أو يسمعوا جملاً لم يسمعوها من قبل"6.

وكان الهم الرئيس لسيبويه الارتقاء بمنهجه الوصفيّ ليعطي تفسيراً للظواهر اللّغويّـة, والتفسير بحاجة إلى مقدرة ذهنية لتوليد أمثلة جديدة متسقة مع أصول اللّغة أسماها (التمثيل), وبذلك اكتسب منهجه سمة الريادة في مجال دراسة بنية اللّغة, كما أنّ كتابه يقدم نموذجاً من التحليل البنيويّ لم يعرفه الغرب حتى القرن العشرين.

وقد وقفنا في الكتاب على عبارات تنصّ على توليد جمل مصنوعة قصد التمثيل, على نحو مقارب جداً لِمّا تستهدفه القواعد التوليديّة, ومن ذلك قوله: " إنّما ذكرتُ هذا للتمثيل "7, وقولـه: " فالتمثيل على ما ذكرتُ لك"8.

---

[1] – الكتاب: 62/1.

2– المصدر السابق: 117/1.

3– المصدر السابق: 93/1.

4– المصدر السابق: 102/1, وينظر في قريب منه:273/1, و330/1.

5– الكتاب : 123/1, وينظر في قريب منه 353/1.

6– ينظر جوانب من نظرية النحو: ص 8, 9, 39.

7– الكتاب : 387/2.

8– المصدر السابق: 47/3.

وميّز سيبويه بين الاستعمالات اللّغويّة المسموعة, والتي اقترحها قصد التفسير والتوضيح إذْ أنّ ما يقدمه من أمثلة, يتنزل منزلتين مختلفتين : فبعضه من كلام العرب, أي أُخِذ عن الأعراب وسُمِع منهم, وبعضه الآخر تمثيل لا يُتَكَلم به, أيّ أنّه يُؤتى به لأغراض التحليل من غير أنْ يكون مُعْطىً لغوياً حقيقياً "[1] , لأنّ منهجه الوصفي, الذي بنيَّ أساساً على الموضوعيّة والالتزام بالمستعمل من كلام العرب " ينهي باستمرار عن الاستعاضة بالتمثيل عن المعنى الأصليّ " 2.

وتتردد في الكتاب عبارات, تنمُّ صراحة على التمييز بين الاستعمال, والتمثيل, ومن ذلك قوله: " وهَذا تمثيلٌ ولا يُتكلم به "3, وقوله: " وهذا تمثيل وإنْ لم يُتكلم به"4, وقوله: " فهذا تمثيلٌ وإنْ كان لا يُستعمل في الكلام "5, وقوله: " لايُستعمل في الكلام ولكنه مُثّلَ به "6, وقوله: " فهذا يُوَضّحُ لك وإنْ كان لا يُتكلم به "7.

هذه هي أبرز أسس المنهج الوصفي في كتاب سيبويه, وهي في مُجملها لا تختلف عن الأسس التي يستند إليها المنهج الوصفي الحديث, وقد اهتدى إليها سيبويه وطبقها في أوّلِ موسوعة لغويّة عربيّة و بشكل ينمُّ على صواب منهجه وريادته في هذا المجال, ويتضح ذلك في المستويات اللّغويّة الثلاثة: الصوتيّة والصرفيّة والنحويّة.

[1] – ينظر : اللسانيات واللّغة العربية, ص 55.

2– نقد نظرية النحاة في النداء, ص 29.

3– الكتاب: 1/ 83, 312, 28/3.

4– المصدر السابق: 375/1, 377, 119/2, 171, 34/3.

5– المصدر السابق: 153/1.

6– المصدر السابق: 392/1.

7– المصدر السابق: 562/3.

المصادر والمراجع:

- **القرآن الكريم**
- أبنية الصرف في كتاب سيبويه : الدكتورة خديجة الحديثي, منشورات مكتبة النهضة, ط1, بغداد (1385هـ – 1965م) .
- الاستقراء والمنهج العلمي: الدكتور محمود محمد فهمي زيدان, دارالمعرفة الجامعية, الإسكندرية, (1988م).
- أصول النّحو العربيّ في نظرة النحاة ورأي ابن مضاء: الدكتور محمد عيد, عالم الكتب, القاهرة (1973م)
- تاريخ علم اللّغة منذ نشأتها حتى القرن العشرين : تأليف (جورج مونين), ترجمة الدكتور بدر الدين قاسم, مطبعة دمشق (1972م) .
- تطور الدرس النّحويّ : الدكتور حسن عون, جامعة الدول العربيّة, معهد البحوث والدراسات العربيّة, مطبعة البجلاويّ, (1970م) .
- جدلية علم الاجتماع بين الرمز والإشارة : تأليف (اينو دوزي), ترجمة الدكتور قيس النوري, دار الشؤون الثقافيةالعامة, بغداد (1988م) .
- جوانب من نظرية النحو : تأليف (نوم تشومسكي), ترجمة مرتضى سعيد باقر, وزارة التعليم العالي, جامعة البصرة (1986م) .
- دراسة الصوت اللّغويّ : الدكتور أحمد مختار عمر, مطابع سجل العرب, ط1, (1976م) .
- علم اللّغة العام : (فرديناند دي سوسير) ترجمة يوئيل يوسف عزيز, دار آفاق عربيّة, بغداد (1985م) .
- في نحو اللّغة وتراكيبها, منهج تطبيقيّ : الدكتور أحمد عمايرة, عالم المعرفة للنشر والتوزيع, جدة, السعوديّة (1404هـ – 1984م)ز
- كتاب سيبويه : تحقيق عبد السلام هارون, الناشر مكتبة الخانجي, ط3,بيروت (1408هـ– 1987م) ز
- لسان العرب : ابن منظور : (ت 711هـ) دار صادر بيروت, (1955م).
- اللّغة بين العقل والمغامرة : الدكتور مصطفى مندور, مطبعة أطلس, القاهرة, الناشر, منشأة المعارف الإسكندريّة (1974م) .
- اللّغة بين المعيّاريّة والوصفيّة : الدكتور تمام حسان, مطبعة النجاح الجديدة, دار الثقافة, الدار البيضاء, المغرب (1400هـ – 1980م) .
- مشكلة البنيّة : الدكتور زكريا إبراهيم, دار مصر للطباعة, القاهرة (د. ت) .
- مناهج البحث في اللّغة : الدكتور تمام حسان, دار الثقافة, الدار البيضاء (1979م) .
- منهج كتاب سيبويه في التقويم النّحويّ: الدكتور محمد كاظم البكاء, دار الشؤون الثقافيّة العامة, بغداد (1989م).
- النّحو العربيّ والدرس الحديث (بحث في المنهج): الدكتور عبده الراجحي , دار المعرفة الجامعيّة , مطبعة الانتصار, الإسكندريّة (1988م).
- النّحو الوصفيّ من خلال القرآن الكريم: الدكتور محمد صلاح الدين مصطفى بكر, المطبعة الفنيّة, القاهرة (1979م) .
- نظريّة النّحو العربيّ في ضوء مناهج النظريّة الحديثة : الدكتورنهاد الموسى, المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر, بيروت (1980م) .

الدراسات والمقالات المنشورة في المجلات

- الاستقراء في اللّغة : الدكتور عدنان محمد سلمان , مجلة المجمع العلميّ العراقيّ بغداد , المجلد (24) الجزء (3) تموز (1983م) .
- البحث اللّغويّ وصلته بالبنيويّة في اللّسانيات : الدكتور رشيد العبيدي, مجلة آداب المستنصريّة, بغداد, العدد (2) , (1985م) .
- بعض ملامح المنهج اللّغويّ عند العرب : الدكتور محمد سامي أنور مجلة كليّة الآداب والتربيّة, جامعة الكويت, كانون أوّل (1977م) .
- مواضع اللّبس في العربيّة وأمن لبسها: الدكتور عبد الفتاح حمّوز, مجلة مؤتة للبحوث والدراسات, جامعة مؤتة , الأردن, المجلد (2) العدد (1) (1987م) .
- نقد نظريّة النّحاة في النداء : الدكتور جميل علوش, المجلة الثقافيّة, الجامعة الأردنيّة, العدد (7), (1785م) .